الغرباء الثلاثة

للكاتب الانجليزى توماس هاردى
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

ما يزال الريف الإنجليزى يتسم بسمات لا تستطيع يد الدهر أن تعبث بها إلا قليلاً قليلاً : فتلك هى المراعى من الكلأ والحشائش التى كانت منذ زمان ما تبرح تغطى مساحات واسعة فى الجنوب والجنوب الغربى من الجزيرة ، وتتناثر فى ثناياها أكواخ منعزلة يأوى إليها الرعاة ، هى مسبا كنهم لا يجدون عنها متحولاً ...

ومنذ خمسين سنة خلت كان فى صميم الريف الجنوبى كوخ يبعد عن المدينة بمسافة خمسة أميال فقط ؛ ذلك هو كوخ (هاير كروستيرز) . ولم تكن هذه المسافة ضئيلة والطريق مُمورِ صعب يرقى فى حزن من الأرض تغطيه الثلوج والأوحال شتاء ؛ فإذا هبت نسمات الربيع والصيف بدا وسط جمال يجذب إليه الفلاسفة والشعراء والمفكرين ممن يحلو لهم أن يستمتعوا بجمال الطبيعة عن كثب

ولقد شُيد (هاير كروستيرز) على نشز من الأرض ليكون قبلة الغادى والرائح ، لا يستجن من تقلبات الأرض بجنة ؛ غير أن الرياح وهى تسفه كلما هبت هوجاء شديدة ، والأمطار وهى تصدمه كلما انهلت متدفقة هتانة ، لم تكن بأقسى عليه منهما فى بطن الأرض ؛ ولكن الراعى فينيل — صاحب هذا الكوخ وأسرته ، كانوا كثيراً ما يألمون لما يصيبهم هنا فى هذه العزلة فما يجدون شيئاً ينفسون به عن أنفسهم سوى أن يتشكوا لذعات البرد وآلام الصدر ، ثم هم يتمنون أن يستطيعوا فيعيشوا هناك فى السهل إلى جانب النهر

* * *

لقد كانت أمسية يوم ٢٨ مايو سنة — ١٨ ليلة تثير فى القلوب الرحمة والشفقة ؛ فالأمطار تهطل مدراراً تصفع جوانب الجدران وتتدفق من فوق المنحدرات ؛ والأعاصير تهب عاتية وتصفر صفيراً ينخلع له القلب ؛ وقطعان الضأن والماعز تقف فى العراء لا تجد من دون ذلك ستراً ؛ والراعى فينيل يندب حظه التعس فى ليلة هى ليلة تعميد ابنته الثانية وميلادها فى وقت معاً ، وأصدقاؤه يتوافدون عليه زمراً زمراً يلبون دعوته

لا ضير ، فالضيوف قد بلغوا المكان قبل أن يهمّ الغيث بأول قطراته ، واجتمعوا فى بهو الدار لا يستشعرون مما وراء الجدران من شىء . وفى البهو شموع كثيرة متناثرة فى أنحائه ، ثم الموقد وقد تأججت فيه نار ترسل « بين الحين والحين » فرقعات هينة ضعيفة كأنها ضحكات من به جِنة

تسعة عشر يضمهم البهو بين جدرانه : خمس نساء تزين فى أبهى حلل وجلسن فى هدوء على كراسى بإزاء حائط ، وجماعة من الأطفال ، وأربعة رجال بينهم شارلى جاك النجار ، وإليجا نيو كاتب البيعة ، وجون بيتشر بائع اللبن وجون الراعى ... ثم فتى

وفتاة يجلسان فى زاوية يرقبان ما يكون فى لذة وشغف ، ورجل عند الخمين يضطرب بين القوم فى إثر خطيبته الشابة . وشمل المكان سرور ونشوة فانطلقت كل نفس على سجيتها تلتمس الطرب واللذة فى كل ما ترى

* * *

لقد تزوج الراعى فينيل من فتاة ذات ثراء هى ابنة جون بيتشر الذى يعيش فى الوادى ، صحبت معها خمسين جنيهاً ادخرتها لتسد بها خلّة إن هى عرضت ، وهى فتاة مدبرة مارست أخلاق الناس ، فهى تعلم أن القوم — فى مثل هذا الحفل — ينقسمون إلى شطرين : القوم الجلوس وهم يجدون فى أنفسهم الميل إلى الشراب يجددون به نشاطاً يستله طوله البقاء فى مكان واحد ؛ والذين يتراقصون وهم إن نزعوا عن الشراب حيناً فإن نفوسهم لتهفو نحو الطعام ... ولقد كان يفزع السيدة فينيل أن ترى نهم القوم فى الشراب والطعام ، فأوحت إلى الموسيقيين أن تكون أشواط الرقص قصيرة تتخللها فترات من الحديث والغناء ، تريد أن تشغل القوم عن أن يندفعوا فى الطريق الآخر وزوجها قد سيطرت عليه جمى الكرم

وكان العازف على القيثارة صبياً عند الثانية عشرة من عمره فيه الرشاقة والخفة يعزف على قيثارته فى مهارة وإتقان ... وابتدأ الصبى يعزف أول لحن عند السابعة مساء وبرفقته إليجانيو كاتب البيعة وكان قد صحب نايه الحبيب إلى نفسه ، وابتدأت أشواط الرقص قصيرة والسيدة فينيل لا تنأى عن الموسيقيين إلا ريث تنفلت إليهم ... غير أن الصبى وإليجا اندفعا لا يلقيان بالاً إلى أمر السيدة .

وقد نفح أوليفر جيلز — أحد الراقصين — الصبى بقطعة ذهبية ليندفع فى العزف فيستطيع هو أن يظفر بدقائق يقضيها بين يدى صاحبته ؛ وهال ربة الدار ما رأت فانطلقت تمسك بذراع الصبى وتسد طرف الناى بيدها الأخرى فما أمسكا . . . وخشيت عِبّ الأمر إن هى اندفعت على غلوائها ، فانتحت مكاناً قصياً يتعاورها الأسى واليأس . . . ثم سرت حُميّا اللحن فى نفوس القوم فاهتزت أعطافهم وماج البهو بالناس ساعة من زمان

وبينا تلك الحوادث الجميلة تعاقب فى قلب الدار كانت حادثة أخرى تنسج خيوطها فى ضمير الليل على بضع خطوات ، فعلى حين كانت السيدة يزعجها أن ترتفع نغمات الموسيقا فى جنون النشوة كان شبح يسرى نحو التل فى غير أناة ولا مهل ويقترب من المنزل رويداً رويداً

هذا هو البدر يتكبد السماء لا تستطيع السحب المتكاثفة أن تمنع ضوءه أن يكشف عن رجل يدب الطريق وقد جاوز سن الشباب والنشاط ، غير أنه ما يزال متماسكاً قوى العضل طوالاً ، يرتدى لباساً وحذاء عاثت فيهما يد الأيام

لقد بلغ هذا السارى المنزل والمطر يتدفق فى شدة وعنف ، فعرّج على زريبة خاوية عند طرف حديقة الدار ... عرّج عليها يلتمس فيها ملجأ ، وحين اطمأن به المكان سمع رنات الموسيقا تتصاعد شجية من قلب المنزل فتختلط نغماتها بصوت قطرات المطر وهى تتساقط على أوراق الكرنب ، وعلى خلايا النحل المرصوصة على حيد الطريق . . . ثم خفت الصوت ، وساد المكان صمت رهيب ، فهب الرجل من مكانه يدلف صوب الباب ، وهم يريد

أن يطرقه . تلبث ريثما ينظر من خلال ثغرة بالباب ليرى وليتخذ لنفسه ذريعة يدفع بها سيل الأسئلة التى خالها ستصوب إليه من كل ناحية .

وظلّ فى مكانه زماناً ينظر من خلال الثغرة فلا يرى شيئاً ، وينظر إلى وراء فلا يستشف إنساناً ثم طرق الباب فى هوادة والقوم يتحدثون بمد ساعة من رقص وسماع ... وصاح رب الدار « أدخل ! » ففتح الرجل الباب فى رفق وتقدم خطوة ، وراح الراعى يحدق فى الضيف ، فإذا رجل أسمر اللون يرخى طرف قبعته على وجهه غير أن عينيه تبدوان واسعتين حادتين تنفضان المكان نفضاً سريعاً ، ثم ارتسمت على وجهه سمات البشر فرفع قبعته عن شعر جعد كث ، وقال فى صوت أجش : يا رفاق ، إن المطر يتدفق فى غير رفق ولا هوادة ، فدخلت لألتمس الراحة والاستجمام هنا . فأجابه الراعى : « لا بأس فأنت ذو حظ عظيم لأن القدر ساقك فى ساعة جميلة لا تكون فى السنة إلا مرة واحدة » قال الرجل : « وماذا عسى أن تكون هـذه الساعة ؟ » فأجابه الراعى : هى عيد ميلاد ابنتى »

وانطلق الرجل صوب الموقد ، وهو يقول : « سآخذ مكانى بإزاء الموقد لأن ملابسى قد بللتها الأمطار » ، والأبصار من حوله ترمقه بنظرات فيها الشك والريبة . وأفسحت السيدة فينيل للطارق مكاناً فجلس إلى جانب الموقد وأرسل يديه ورجليه فى غير تحرّج ، ثم أخذ يتحدث إلى السيدة فينيل فى صراحة حين رأى عينيها تحدقان فى حذائه البالى : « نعم ، لقد تمزق حذائى وأنا لا أجد فضلة من مال فلقد عركتنى الفاقة فى أيامى الأخيرة فما استطعت إلا أن ألتقط ما أجده من اللباس ملقى على الطريق ، غير أنى سأبذل جهد الطاقة لأكون أحسن حالاً » قالت الزوجة : « أفأنت من قريب ؟ » قال : « لا ، إن قريبى فى الشمال » قالت : « لقد تحدثت إلى لهجتك بذلك ، فأنا الأخرى من الشمال » ، ثم راح يدفع عن نفسه سيل الأسئلة الذى حاولت أن تعطره به الزوجة ، ثم انطلق فى حديثه « ... غير أن شيئاً واحداً يبعث فىّ روح السرور ... ذلك أن أجد قليلاً من التبغ ، فأنا لم أطعمه منذ زمان » فقال له الراعى : « لا ضير ، فأنا أملأ لك غليونك » فقال له الغريب : « إننى لا أجد بدّاً من أن أسألك غليوناً أيضاً ، لأن غليونى سقط وأنا فى طريقى إلى هنا » فملأ له الراعى غليوناً وناوله إياه وهو يقول : « إذن أعطنى كيس تبغك لأملأه لك » فأخذ الرجل يفتش فى جيوبه فى اهتمام فقال له الراعى : « لعله فُقد هو الآخر ! » قال الغريب : « إننى أخشى ذلك » ثم أشعل غليونه من شعلة إلى جانبه ، وراح يدخن فى صمت لا يريد أن يعكره بحديث وقد علقت عيناه بالبخار المتصاعد من رجليه المبتلتين ...

* * *

وانشغل القوم عن هذا الغريب حين اندفعوا فى جدال عنيف لا يتناول إلا اللحن الذى يعزف للرقصة القادمة ، وحين أجمعوا أمرهم على لحن هموا يريدون شيئاً لولا أن طارقاً دق الباب . وسمع الغريب الأول صوت الطرقات وهو إلى جانب الموقد فراح يعبث فى نار الموقد كأن شيئاً لا يعنيه ، وارتفع صوت الراعى الأجش من أقصى المكان : « ادخل ! » ودلف غريب آخر ...

لقد كان هذا الغريب يختلف عن الأول اختلافاً

نَيّفاً ، فهو يبدو حقيراً ، وفى سمات وجهه أنه أفاق مرح يكبر الأول بسنوات ، أبيض الشعر ، كث الحاجبين ، يتدلى شعر سالفيه على خديه ، فيه القوة والنشاط . وحين دخل خلع معطفه عن سترة رمادية أنيقة وراح ينفض عن قبعته قطرات الماء العالقة بها وهو يقول : « لا بد ، يا صحابتى ، أن أجد مأوى أو ينفذ الماء إلى جسمى قبل أن أبلغ كاستربردج » فقال له الراعى : « خذ قسطك من الراحة يا سيدى فى اطمئنان »

لم يكن الراعى فينيل كزًّا شحيحاً ، غير أن الغرباء كانوا يبعثون فى نفوس القوم شيئاً من الاشمئزاز والضيق فى ساعات اللهو والطرب ، وإن الأطفال والنساء لينفرون منهم خشية أن يصيب ملابسهم الزاهية المتأنقة بعض البلل فيطفئ من جمالها

خلع الغريب الثانى معطفه وقبعته ثم جلس فى أقصى النضد ، هناك إلى جانب الأول ، بعد أن حيا كل منهما صاحبه بإيماءة بسيطة . وحين اطمأن الثانى فى مكانه ناوله الأول قدحاً كبيراً من الرحيق زينتها نقوش كثيرة بينها الكلمات :

لا سرور ولا طرب
إلاّ أن أكون أنا

فتناوله وراح يشرب فى شراهة فزعت لها زوجة الراعى وهى تعجب من جرأة هذا الرجل غير أن هذا الغريب التفت إلى الراعى يقول : « لقد كنت أعلم ذلك ، فأنا حين ألفيت خلايا النحل لدى باب الحديقة حدثتنى نفسى بأنه حيث يوجد النحل يوجد العسل ، وحيث يوجد العسل يوجد هذا الرحيق ؛ ولكنه ما كان يجول بخاطرى أن أستمتع بمثل هذا الرحيق فى سنى شيخوختى » ثم علّ بعد نهل ، فأجابه الراعى : « أفيسرك ذلك ؟ » فقاطعتهما الزوجة فى فتور : « نعم ، وإن عمله ليتطلب مجهوداً كبيراً ... وفى الحق إننى لا أستطيع أن أعد غيره لأن شيئاً من العسل لم يبق لدينا » فقال الغريب الثانى بعد أن أتى على صبابة كانت فى غور القدح : « إننى أغرم بهذا الرحيق المخمر كما أحب أن أنطلق إلى كل الكنيسة فى أيام الآحاد ، وكما أهوى أن أسد خَلّة الموز أنى عرضت (ورن صوت الغريب الأول ها ، ها ، ها !)

وبدا أثر هذا الشراب على الغريب الثانى فتمطى على كرسيه ونشر ذراعيه ورجليه وهو يقول : « نعم ، نعم ! لقد كان علىّ أن أكون الآن فى كاستربردج غير أن المطر حال بينى وبين بغيتى ثم دفعنى إلى داركم لأجد هنا لذة » قال الراعى : « أفتقيم هناك » قال : « لا ، ولكننى سأمكث قليلاً » قال الراعى : « لعلك فى تجارة ! » قالت الزوجة : « لا ، فأنا أرى على السيد أثر الثراء » قال الغريب : « لا ، لست غنياً كما تقولين يا سيدتى ، فأنا أعمل جهد الطاقة ، وإذا بلغت كاستربردج عند منتصف الليل فسأبدأ عملى عند ابتسام الصبح » قالت الزوجة : « مسكين ! فأنت تبدو غير ذلك » قال الغريب : « لا جرمَ ، فتلك طبيعة عملى ، ولا بد أن أنطلق الآن إلى حيث يناديني عملى ، فهل لى أن أطلب إليكم قدحاً آخر من الشراب قبل أن أبدأ السير ؟ » فأجابته الزوجة : « هاك قليلاً » فرفض الرجل قائلاً : « لا ، فأنا لا أريد أن يغض هذا المنع مما لمست فى أول الأمر من عطف وكرم » قال الراعى : « نعم ، فنحن لا نحفل هذا الحفل كل يوم » ثم انطلق إلى مكان مظلم تحت السلالم ليملأ القدح من برميل هناك ، وانطلقت الزوجة على أثره تحدثه فى مأمن من كل أذن : « لماذا

تفعل ذلك وهو قد شرب قدحاً كبيراً يكفى رجلاً كثيرين فما قنع ، وهو غريب لا تعرفه ، ولعمرى فأنا أستشعر له الكراهية والمقت » قال الراعى فى رفق : « وماذا يضيرنا إن حبوناه بقدح آخر فى عيد تعميد ابنتنا ، ثم هو ضيفنا يا عزيزتي . والليل ليل قر والسماء قد فتحت أبوابها بماء منهمر » قالت فى غيظ : « ولكن من عساه أن يكون هو فيجلس إلينا فى غير تحرج؟ » قال: « لست أدرى وسأسأله» وبينا كان الغريب الثانى يرتشف هذا الرحيق المز ، كان الراعى يسأله عن أشياء وهو صامت لا يجيب ؛ فاندفع الغريب الأول يقول : « إنه لا يضيرنى أن يعرف كل إنسان صنعتى ، فأنا صانع عجلات » . قال الغريب الثاني : « وأنا لا يضيرنى أيضاً لو أن الحدس يرقى إلى عملى » . وقال شارل جاك النجار : « إنك تستطيع أن تنبئ عن صنعة الرجل إن أنت دققت النظر فى أصابعه ويديه ، فهذه أصابعى فيها آثار المسامير واضحة جلية » . وأخذ الغريب الأول يختلس النظرات إلى أصابعه وهو يداعب غليونه ، والغريب الثانى يجيب النجار : « حقاً ، غير أن صنعتى لا يبدو أثرها على بقدر مايبدو على زبائنى » وبدا حديث الغريب الثانى أحجية لا يستطيع العقل أن يكشف عنها

وضاقت السيدة فينيل بهذا الجدل ذرعاً فانطلقت تلتمس فى الموسيقى ترفيهاً ، ولكن المغنى كان مكدوداً وقد نسى الصبى أول مقاطع اللحن ، غير أن الغريب الثانى رفه عنهم حين طلب إليهم أن يغنيهم هو ، ثم ابتدأ يردد فى صوت شجى :

إن صنعتى نادرة
يا أيها الرعاة البسطاء
إن صنعتى هى مما يرى العين
لأن زبائنى أوثقهم فى قرن وأرق بهم إلى أعلى
ثم أدفعهم إلى البلاد النائية

لقد كانت الحجرة فى صمت عميق والصوت يرن فى أرجائها عذباً حتى بلغ المقطع الأخير فرافقه فيه الغريب الأول فى نغم موسيقى جميل ، ولكن أبصار القوم كانت قد تعلقت بالرجل وقد استولت عليهم الدهشة : أكان الرجل يغنى فى سنى شبابه فهو يردد أغنية قديمة ، أم هو قد صنع هذا الصوت لساعته ؟ واضطربت الفكرة فى رءوس الناس جميعاً سوى الغريب الأول ، فلقد قال فى هدوء : « لحن آخر أيها السيد ! » فاندفع الرجل يغنى :

إن آلاتى هى مما يعرف الناس
يا أيها الرعاة البسطاء
إن آلاتى هى مما يعرف الإنسان
هى حبل صغير من القنب ، وعصا تتذبذب .
تلك آلاتى التى أحتاج

وانجلى الشك ، فلقد كان هذا جواب اللحن الأول . وراح الجمع يتساءلون فى همس : « أوه ، إنه ... سيكون غداً فى سجن كاستربردج ، إنه لص غنم ، إنه هو صانع الساعات الفقير الذى كان يعيش فى شوتسفورد ، هو تيموثى سومرس الذى كانت أسرته تعيش فى شظف فاغتصب — رأد الضحى — شاة بعد أن غلب الراعى وزوجته وابنه على أمرهم . والآن لقد هفا نحو هذه الناحية ليجترم هنا مثل ما اقترف هناك ... »

وأحس الغريب الثانى الهمسات تضطرب حواليه فما أعارها التفاته ، ثم انطوى على الغريب الأول يحدثه لأنه كان يشاركه مرحه وأغنياته ، وشخصت

الأبصار إلى الرجل وهو يهم أن يغنى لحناً ثالثاً غير أن دقات خافتة اخترقت مسامع الحاضرين . . .

واستولى الرعب على الجمع ، ورمى الراعى الباب بنظرة وهو يقول : « أدخل ! » وانفتح الباب فى هدوء ودلف غريب ثالث . . . لقد كان قصيراً ضئيلاً فيه الجمال والأناقة ؛ وردد بصره فى أنحاء البهو وهو يقول : « أفيستطيع واحد منكم أن يدلنى على الطريق إلى . . . ؟ » ووقع بصره على الرجل الذى يغنى مندفعاً لا يلوى على شيء والناس من حوله يموج بعضهم فى بعض :

إن غداً هو يوم عملى
يا أيها الرعاة البسطاء
إن غداً هو يوم عملى

لأن غنم الفلاح قد سلخت ، ولكن الصبى الذى سلخها قد اختفى

وعلى روحه رحمة من الله !

واندفع الغريب الأول يردد المقطع الأخير وهو يلوّح بكأسه كأنه يوقع نغم اللحن . . .

كل هذا والغريب الثالث لدى الباب لم يبرح مكانه ، ولم يتمم حديثه والقوم يرمقونه بالنظر الشزر لأنه بدا جباناً متخاذلاً ينتفض كمن تعركه الحمى ، وقد اصفر وجهه ، وخارت قوته ، وتعلق بصره بالغريبين حيناً ، ثم . . . ثم ارتد على عقبيه وطار . .

لشد ما عجب الراعى حين رأى الرجل يضطرب ثم ينفلت من بين أيديهم ! فقال : ماذا عسى أن يكون هذا الرجل ؟

وتوزعت هذا الناس خواطر سوداء متناقضة ، وساد البهو سكون فما تسمع إلا قطرات المطر المتساقطة على خشب النوافذ ، وإلا هبات النسيم تداعب غصون الشجر ، وإلا صوت نفثات الدخان ينفخها الرجل الجالس إلى جانب المدفأة .

وتصرمت ساعة من زمان ثم دوّى فى الجو صوت طلق نارى ، ارتفع من ناحية المدينة ، فهب الغريب الثانى من مكانه صائحاً : «يا لله» وصاح جماعة : «ماهذا؟» فقال الغريب الثانى : « إن سجيناً قد فر ، وليس سوى ذلك !؟ وإننى أخشى أن يكون هو الرجل الذى كان هنا منذ دقائق ! » قال الراعى فى أناة : « لا ريب فهو . . . هو الرجل الذى اضطرب حين رآك وسمع أغنيتك » ، وانطلق كل واحد يعلق على كلام الراعى غير أن طلقاً آخر ربط على قلوبهم فألقى بهم فى قرارة صمت عميق .

وتكررت الطلقات فانتفض الغريب الثانى من مكانه يسأل فى صوت أجش : « هل هناك شرطى ؟ إذا كان هنا واحد فليتقدم خطوة إلى الأمام ! » فتقدم الرجل ذو الخمسين وهو يرتعد ويقول : « أنا يا سيدى ! » قال : « إذن فانطلق على آثار المجرم الفار . . . انطلق أنت وبعض زملائك وعُدْ به إلى هنا فهو ما يزال قريباً منا » قال العجوز : « سأفعل يا سيدى بعد أن أحضر هراوتى » قال الغريب الثانى : « هراوتك ؟ إذن سيفر المجرم فلا نستطيع أن نعثر عليه ! » قال العجوز : « ولكنى لا أستطيع أن أتقصص الجانى دون أن أصحب عصاى وهى كل سلاحى » قال الغريب الثانى وهو يحدث القوم : الآن وأنا جندى من جنود الملك ، آمركم جميعاً أن تصحبونا ، نعم فليقم معنا كل من يستطيع الذهاب باسم القانون

وهب الجميع يطلبون الطريدة ، وفى أيديهم المصابيح ، خيفة أن يندس فى غمار الظلام فيفلتهم

وتدافعوا نحو الباب وقد هدأ المطر قليلاً قليلاً

وعلى حين فجأة فزعت الطفلة التى يحتفلون بعيد ميلادها ، وهرعت الصرخة النساء جميعاً فانطلقن إلى حيث الطفلة فى الطابق العلوى وخلّفن البهو من ورائهن خلاء

* * *

هدأ المكان إلا من وقع أقدام الجماعة تتلاشى فى ضمير الليل وتبتعد عن المنزل رويداً رويداً ، وإلا من وقع أقدام الغريب الأول يدلف فى بطء وحذر إلى البهو ليلتهم الطعام والشراب فى شراهة وجشع .

ولبث غير بعيد فإذا صاحبه الغريب الثانى يدلف إلى البهو ؛ وبدت سمات الدهشة على وجهه حين رأى الغريب الأول بإزاء النضد يطعم ويشرب ، ثم قال فى هدوء وهو يبسم « لقد كنت أظنك مع الجماعة . لقد رجعت حين تراءى لى أنهم سيؤدون عملهم فى دقة وإتقان . ثم إن الليلة غبراء ممطرة وأنا لا أريد أن أرهق نفسى بما لا تستطيع عليه صبراً بين هذه الصخور الصعبة » قال الغريب الأول : « لا جرم ، فهم سيكفونك مئونة التعب والضنى » قال الغريب الثانى : « حقاً ، وإن الطريق من هنا إلى كاستربردج سيبلغ بى الجهد قال الأول : أما أنا فسيبقى هناك . وإنه ليخيل إلىّ أنه سينالنى الأين حين أحاول أن أبلغه قبل ميعاد النوم ثم سار صوب الباب وإلى جانبه صاحبه يودعه فى حرارة

انتشر القوم فى كل مكان ينقبون عن المجرم الهارب فى غير دقة ولا نظام ، فالتفتوا يفتشون عن الجندى علّهم يجدون منه المعونة فما وجدوه فانشعبوا بَدداً ، ثم أعياهم الجهد ، فلموا شعثهم وأطفأوا المصابيح لأنها تنم عليهم أنى ساروا ، وراحوا يفتشون فى الناحية الأخرى ، ثم وقفوا قبالة شجرة باسقة هناك أقفرت الأرض إلا منها ، وخيل إليهم أن شبحاً لاصقاً إلى جذعها فانطلق الشرطى إليه يهدده : مالك أو حياتك ! غير أن جون بيتشر همس فى أذنه : لا ، لا تقل هذا فتلك ألفاظ السفاكين والمجرمين ، أما نحن فنحارب بقوة القانون ، قل له : سلم نفسك أيها السجين باسم الإله وباسم الملك !

وبدا الرجل الواقف إلى جانب الشجرة فى ذهوله حائراً كأن لم يستشعر وجود القوم إلا فى هذه اللحظة فدلف إليهم فى بطء ليروا فيه الغريب الثالث ثم قال فى رزانة : نعم ، لقد سمعتكم تتحدثون عنى فأجابه الشرطى فى حدة : نعم ، الآن أنت سجيننا ونحن نقبض عليك لتلقى فى سجن كاستربردج فتذوق وبال أمرك فى الصباح الباكر . ثم التفت إلى رفاقه وهو يقول : يا رفاق لببوا هذا الفارّ ؟

وسمع الغريب الثالث التهمة فى صمت ، وأذعن فى هدوء ، فساقوه إلى الكوخ ، وهناك وجدوا ضابطين من ضباط سجن كاستربردج وناثباً كانوا قد استشعروا فرار السجين فانطلقوا على أثره فانتهى بهم المطاف إلى هذا الكوخ

ودخل الشرطى يعلن القبض على السجين الهارب ، ثم التفت إلى وراء وقال : يا رجال هاتوا سجينكم ! . فدخل الغريب الثالث ، وحدق ضابط فى الرجل فى دهشة وهو يقول : من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ . فأجابه الشرطى : إنه هو السجين . فقال الضابط : لا ... أبداً ... ليس هو ! . فذهل الشرطى وقال : كيف لا !

ثم راح يقص القصة كلها . . . فقال الضابط في فتور : ألا تفهم ؟ إنه ليس هو ! ... ثم ابتدأ يصفه في دقة ويؤنب الشرطي على أن أخطأ ؛ فقال الشرطي في حيرة: يا لله ! إنه هو الغريب الأول الذي كان جالساً إلى جانب الموقد . قال النائب: هذا جميل، وعليكم الآن أن تبحثوا عنه في كل مكان

وأخذ الرجل المقبوض عليه يتكلم لأول مرة حين هزّه ذكر الغريب الذي كان جالساً لدى الموقد أكثر مما هزته جميع الحوادث الماضية فقال : « ياسيدي ، إنني لم أقترف جرماً سوى أن الهارب هو أخي، ولقد برحت داري في شاتسفورد عند الظهر لأبلغ سجن كاستربردج فأودع أخي ، ولما جنّ عليّ الليل عرّجت على هذه الدار أسأل الراحة والطريق معاً ، فلما ولجت الباب ألفيت أخي هنا حراً بعد أن كان يتراءى لي أنه في كاستربردج في قفص الاتهام، لقد كان هنا إلى جانب الموقد ، وإلى جانبه الرجل الذي انطلق يتقصصه ليستل روحه من بين جنبيه وهو يغني في طرب ولا يعلم أنه إلى جانب فريسته . ونظر إلى أخي نظرات فيها حديث طويل وعيته كله فانطلقت لا أعقب . . . » وكانت سمات الصدق والجد تبدو واضحة في رنّات صوته، ثم ساد المكان صمت قطعه النائب بقوله : وأنت أفلا تعرف أين أخوك الآن ؟ قال الرجل : لا ، فأنا لم أره منذ أغلقت الباب من ورائي . ولم يشأ النائب أن يلح في سؤاله فأطلق سراحه . . .

ومرت الأيام ، وما يستطيع إنسان أن يعثر على السجين الهارب أو يراه ، والحدس ما يستطيع أن يسمو إلى ما كان منه ...

كامل محمود حبيب

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً